

البنية العمرانية لمدينة قلعة بني حماد

لاشك

أن التحليل المورفولوجي للمخطط العمراني لمدينة القلعة يتطلب الاختصاص الدقيق في ميدان العمران والآثار ، ويعتمد على نتائج التقنيات والحفريات التي يقوم بها الأثريون ، وكذلك على الدراسات الأبحاث الحديثة ، لذا فإنني سأحاول في هذه المداخلة دراسة المخطط العمراني والبنية الداخلية لهذه المدينة خلال العهد الحمادي معتمداً في ذلك على ما توفر لدي من مادة خبرية ، استقيتها من النصوص التاريخية بالدرجة الأولى والتي عثرت عليها في المصنفات العامة والخاصة بتاريخ الدولة بني حماد وحضارتهم ، ثم نعتد بعد ذلك على نتائج بعض الدراسات والأبحاث الميدانية الحديثة التي سبقي في هذا الموضوع ، غير أن قلتها ونذرتها وغموض بعضها تجعلنا نلجأ إلى النصوص التي تدفعنا إلى بعض النتائج التقريبية بتحديد بعض أماكن الأحياء ، والأبواب ، والمساجد التي وردت أسماؤها في هذه النصوص لاندثارها وزوال معالمها العمرانية بسبب الإنسان ومعول الزمان الذي عبث بها.

تتميز المدينة الإسلامية عموماً في بلاد المشرق والمغرب بسمات مشتركة بغض النظر عن المميزات التي تقرضها البيئة الطبيعية ، والتقاليد المحلية. إن تشييد المدينة الإسلامية مرتبط بضوابط وشروط أساسية وضرورة توفر بعض المعالم العمرانية على رأسها المسجد الجامع ، والسوق ، والأسوار ، والأبواب وشبكة الطرق والدروب المخصصة للمشاة والعربات ، كما يمتاز سكان المدينة بحرصهم على صيانة ديارهم وبناءها تماشياً مع القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد التي بنيت عليها الأسرة الحضارية الإسلامية وهي ضوابط تفند ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن البناء في المدن الإسلامية يتميز بالعشوائية وعدم التماسك.

إن مدينة قلعة بني حماد لا تخرج عن هذه القاعدة ولا تشد عنها ولا تبعد عن وظائف هذا التخطيط ومعلمه ، فقد عرفت هي الأخرى تطورات منذ بنائها م قبل بني حماد الذين لهم الفضل الكبير في جعلها قاعدة للحكم ومركز دائرة نفوذهم في المغرب الأوسط^(١) ، تتجلى هذه المآثر الباقية بالمدينة كالأسوار ، والقصور والمساجد ، والأبراج ، وهي معالم عمرانية تدل دلالة واضحة على اهتمام الحماديين بتشديد العمران وتخليده ، وعكس ازدهار هذه الصورة تطور العلوم والفنون والصناعات وانتشار السواق بالمدينة مما يدل على الرقي الحضاري للمجتمع الحمادي في ذلك الوقت.

كانت مدينة القلعة في العهد الحمادي عاصمة الدولة ، بنيت سنة ١٠٠٧ م أي قبل إعلان استقلال الدولة الحمادية ، تقع على حافة مرتفعات "التل" مشرفة على طرق تجارية عظيمة الأهمية تصل ثغر بسكرة بالساحل فرضت هذه المدينة نفسها كمدينة رسمية يقطنها أمراء بني حماد^(٢).

المساجد: شيد بنو حماد بالقلعة المسجد الكبير أو الأعظم ، ومسجداً صغيراً بقصر المنار ، كانت تؤدي الصلوات بهما ، وتلقى فيه بعض الدروس على الطلبة في المجالس العلمية المختارة^(٣) ، وتعتبر مؤذنة المسجد الأعظم من أقدم المؤذنة الجزائرية تتألف من برج واحد ، يبلغ ارتفاعها حوالي أكثر من أربع وعشرون متراً مبنية بالحجر ، تمتاز هذه المؤذنة بالزخارف التي ترتبها ، فهو تحفة معمارية رائعة حتى أن بعض الباحثين يشيرون إلى أن مؤذنة هذا المسجد قد أثرت في المؤذنة الموحدية وخصوصاً في مؤذنة جامع إشبيلية التي لها زخارف منظمة



قلعة بني حماد

**د. خالد بلعربي**

قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس - الجمهورية الجزائرية

belarbi.tlemcen@yahoo.fr

■ الاستشهاد المرجعي بالهقال:

خالد بلعربي ، البنية العمرانية لمدينة قلعة بني حماد - دورية كان التاريخية - العدد الخامس ؛ سبتمبر ٢٠٠٩.

ص ٢٨ - ٣٠. (www.historicalkan.co.nr).

يشكل قاعة صليبية الشكل وصفين من القاعات المستطيلة متجهة من الجنوب إلى الشمال ورواق مفروش بالأجر الأحمر يحيط بالحوض الكبير الذي تلعب فيه الزوارق حسبها ذكره صاحب كتاب الاستبصار^(١١).

ويتكون قصر السلام من أربع غرف وحجر صغيرة، يؤدي مدخله إلى قاعة مستطيلة يبلغ طولها ١٧,٧٥م وعرضها ٢,٧٥م، وبهذا القصر كذلك قاعات مختلفة الشكل والمقاسات، هذا ويشير بعض الأثريين إلى وجود قصر رابع بالقلعة وهو قصر الكوكب الذي لازلنا لا نعرف عنه أي شيء^(١٢).

الساكن: إن الحديث عن السكن والمسكن بمدينة قلعة بني حماد، يتطلب نصوصاً تاريخية ووثائق عن الخطط، ويتطلب حفريات وتقنيات ميدانية ولكنها مع الأسف غير متوفرة، فالباحثون يعانون من هذا الجانب، إلا أن بعض التنف والإشارات الواردة في بعض المصادر تسمح لنا بتكوين فكرة عامة عن المسكن وأنواعه في مدينة قلعة بني حماد، لأن العمارة الإسلامية تحكمها ضوابط مشتركة تجعلها ذات سمات تكاد تكون واحدة^(١٣)، إن منازل قلعة بني حماد لا تختلف من حيث الشكل ونمط البناء عن منازل المدن المغربية فقد كانت مربعة الشكل في غالب الأحيان، لا تكتسي أي مظهر جمالي من الخارج ليس بها نوافذ مفتوحة على الشارع، وإن وجدت فهي نوافذ صغيرة لا تعرض الحريم للرؤية من الخارج^(١٤)، كانت أبواب المنازل مصنوعة من الخشب كان يتوسط منازل القلعة الفناء ليدخل إليها الضوء، وتوجد بهذه المنازل ممرات تصل الغرف ببعضها البعض، وكانت هذه المنازل تحتوي على قنوات لصرف المياه إلى خارج المدينة، كما كانت تقترب من بعضها البعض خاصة في الأحياء الشعبية الأهلة بالسكان، وقد كان بناء جدران هذه المنازل يتم بالحجارة في الغالب الأعم^(١٥).

أحياء المدينة: لا شك أن مدينة قلعة بني حماد كانت تشتمل على عدة أحياء كغيرها من مدن الدولة الحمادية، تقطنها طبقات اجتماعية مختلفة، والحقيقة أنه من الصعوبة بمكان أن نلم بجميع أحياء المدينة لأن الزمن قد أتى عليها، وبد الإنسان لم يبق منها شيئاً، والنصوص قد أهملتها اللهم إلا تلك البقايا والنتف التي لا تشفى غليل الباحث، ومن بين أحياء المدينة نعرف فقط أسم حي واحد وهو حي جراوة الذي يقع قرب باب جراوة^(١٦).

النواض والجسور: احتفظت مدينة قلعة بآثار أحواض وجسرين، كان عدد الأحواض ثلاثة يقع الإثنين الأولين من قصور المنار والثالث في القسم الجنوبي للمدينة، الحوض العلوي لقصر المنار مستطيل الشكل يبلغ طوله ٤,٩٠م وعرضه ١,٣٠م وعمقه ٤,٩٠م، تصل إليه قناة محفورة في الأرض إلى زاويته الشمالية الشرقية، ويقع الحوض السفلي جنوبي غربي الحوض العلوي، مستواه أقل من المستوى الأول بمتريين، أما الحوض الثالث الموجود جنوبي المدينة فهو على شكل مستطيل يبلغ طوله الداخلي ١٢م وعرضه ٦م، وعمقه متراً، وجدرانه محصنة تحصينا جيداً بدعائم أسطوانية الشكل^(١٧).

أما عن الجسور فقد كان بمدينة قلعة عدة جسور بقي منها اثنين أحدهما في القسم الغربي للمدينة على النهر الموجود بين قصر

حسب ثلاث ألواح قائمة^(١٨)، بالإضافة إلى المسجد الأعظم اكتشف علماء الآثار الجزائريين سنة ١٩٦٨ مسجداً صغيراً بقصر المنار يبلغ طوله ١٦٠ متراً وعرضه ١٢٠ متراً وفي وسط مشكاة محرابه كتابات تحتوي على آيات من القرآن الكريم، منها " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا "، ويعتبر المهندسون والأثريون بناء المسجد الأعظم من أبداع المخلفات الأثرية الحمادية^(١٩).

النسوار والنبراج: اعتنى الأمراء الحماديون بتسيير مدينة القلعة التي كانت قاعدة لحكمهم لبلاد المغرب الأوسط لتكون قلعة منبعا صعبة المنال وحصناً قويا يسهل الدفاع عنها، كانت قلعة بني حماد محاطة بسور مازالت آثاره باقية إلى يومنا هذا، يبلغ طوله سبع كيلومترات، يبدأ من الشط الغربي لوادي فرج من جهة الشرق ثم يتجه نحو الشمال إلى أن يصل إلى جبل تاكربوست ثم ينحدر نحو جبل قرين ليعبر وادا باتجاه الشط الشرقي، ويذكر ابن حماد بأن الذي بني قلعة بني حماد وسورها هو مملوك رومي يقال له بونياش^(٢٠)، واهتم أمراء بنو حماد كذلك ببناء الأبراج القوية والعالية للمراقبة، ومن بين أبراج المراقبة بالقلعة التي يشير إليها الباحثون برج المنار الذي كان يمتاز بعلوه، يراقب مدينة القلعة من جميع الجهات المختلفة، وكان عاملاً مهماً في تسهيل مهمة المراقبة والدفاع عن السكان لهذا البرج قاعدة مربعة الشكل يبلغ ضلعها ٢٠م، كما يشتمل على قاعتين، وكان ممر الحراس يحيط بهما^(٢١).

أبواب مدينة القلعة: تشتمل مدينة قلعة بني حماد على ثلاثة أبواب رئيسية واسعة، شيدت على جانبي كل واحدة منها مراكز حراسة بمثابة أبراج صغيرة مربعة الشكل لمراقبة الضواحي والأماكن المجاورة والداخلين والخارجين منها باستمرار^(٢٢)، وهذه الأبواب الثلاثة هي باب الأقواس، وباب الجنان وباب جراوة، ولم يبق منها إلا الباب الأول ولعل مدينة القلعة كانت تشتمل على أبواب أخرى لم يتم اكتشافها بعد، والجدير بالملاحظة أنه ليست لدينا معلومات خاصة بهذه الأبواب من حيث المكان المحدد لوجودها، فكل ما تشير إليه الدراسات هو فقط إثبات لوجودها، وكانت هذه الأبواب تغلق ليلاً.

القصور: اعتنى الحماديون ببناء القصور، فقد عثر الأثريون في مدينة القلعة على ثلاثة قصور منها، قصر المنار وقصر البحر، وقصر السلام، ويبدو أن أمراء الدولة الحمادية كانوا مولعين بالبناء والتشييد، لأن العمارة رمز القوة والازدهار وهي واجبات ومهام الأمراء الأقوياء، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون "تكثر العلوم حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة"^(٢٣).

يتألف قصر المنار من عدة مباني بعضها بجانب بعض، توجد به قاعات مختلفة الشكل من بينها القاعة الشرفية للقصر وكذلك المسجد الصغير الذي سبق ذكره، لقد بني هذا القصر بأسلوب فني معماري بديع والدليل على ذلك أن الجدار الشمالي للقصر كان يحتوي على ألواح مستطيلة من الرخام فوقها شريط مزين بعناصر هندسية منقوشة في الحجر، وكانت القاعة الشرفية للقصر مفروشة بقطع من الخزف بيضاء وخضراء، وتتخلل القصر أحواض من الزهور والأشجار المثمرة، ونافورات المياه، فهو معلم من معالم العمرانية الحمادية الرائعة^(٢٤).

أما قصر البحر فقد تم اكتشافه خلال الحفريات التي أجراها "دي بيلي" سنة ١٩٠٨، من مميزات هذا القصر أن مدخله الشرفي

أعظم الأخطاء في التاريخ



باع جورج هاريشن من جنوب أفريقيا مزرعته إلى شركة تنقيب بعشرة جنيهات فقط لعدم صلاحيتها للزراعة، وحين شرعت الشركة في استغلالها، اكتشفت بها أكبر منجم للذهب على الإطلاق، أصبح بعدها هذا المنجم مسؤولاً عن 70% من إنتاج الذهب في العالم.

وفي إحدى ليالي 1696م أوى الخباز البريطاني جوفينز إلى فراشه، ولكنه نسي إطفاء شعلة صغيرة بقيت في فرنه، وقد أدى هذا "الخطأ" إلى اشتعال منزله ثم منزل جيرانه ثم الحارات المجاورة، حتى احترقت نصف لندن ومات الآلاف من سكانها، فيما أصبح يعرف "بالحريق الكبير"، أما جوفينز نفسه لم يصب بأذى !!

وفي عام 1347م دخلت بعض الفئران إلى ثلاث سفن إيطالية كانت راسية في الصين، وحين وصلت إلى ميناء مسينا الإيطالي خرجت منها، ونشرت الطاعون في المدينة ثم في كامل إيطاليا. وكان الطاعون قد قضى أصلاً على نصف سكان الصين في ذلك الوقت، ثم من إيطاليا انتشر في كامل أوروبا فقتل ثلث سكانها خلال عشر سنوات فقط.

تذكر بعض المصادر أن أحد الملوك البريطانيين اختلف مع البابا في وقت كانت فيه بريطانيا كاثوليكية، وكره انتقامي حرم البابا تزواج البريطانيين الأمر الذي أوقع الملك في حرج أمام شعبه، وللخروج من هذا المأزق طلب من ملوك الطوائف في الأندلس إرسال بعض المشايخ كي تتحول بريطانيا للإسلام نكاية بالفاتيكاني! إلا أن "جماعتنا" تقاعسوا عن تنفيذ هذا الطلب حتى وصل الخبر إلى البابا، فأصلح الخلاف ورفع قرار التحريم (ولكأن تتصور إسلام بريطانيا، ثم ظهورها كإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس) !!

وكانت فرصة مشابهة قد سنحت للمسلمين، خلال معركة بلاط الشهداء (قرب بواتيه في فرنسا)، ففي هذه المعركة كرر المسلمون نفس الخطأ القاتل في معركة أحد؛ فقد تراجعوا لحماية غنائمهم من جيش شارلمان، فغلبوا وتوقف الزحف الإسلامي على كامل أوروبا. يقول أحد المؤرخين الإنجليز: "لو لم يهزم العرب في بواتيه، لرأيت القرآن يتلى ويُفسر في كامبريدج وأكسفورد" !!

السلام وجبل القرين والثاني يحمل اسم جسر سيدي عيسى موجود جنوبي المدينة وخارجها⁽¹⁸⁾.

وهكذا؛ يمكننا أن نقول أن بنو حماد شاركوا في بناء معالم الحضارة الإسلامية من خلال اهتمامهم ببناء المساجد والقصور والأسوار والأبراج والتي كلها كانت تدل على ولعهم بالبناء والتشييد، وليس عجيباً إذا رأينا ابن حماد يرثي قلعة بني حماد في هذه الأبيات:

أين العروسان لا رسم ولا طلال * وأين ما شاد منه القادة الأول
ومجلس النوم قد هب الزمان له * بحادث قل فيه الحادث الجلل
وما رسوم المنار الآن ماثلة * لكنها خير يجري بها المثل

المواهب:

- 1- إبراهيم حركات، المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، دار إفريقيا الشرق، المغرب 1998، ص 267.
- 2- عبد القادر جفلول، مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، ترجمة فضيلة الحكيم، دار الحدائق، لبنان، 1982، ص 58.
- 3- ينظر: Saladine Note Surla Kalaa des Beni Hammad Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de Constantine 1922-1923. p198.
- 4- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 213.
- 5- يحي بوعزيز، جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، مجلة الأصاله، العدد 19، مارس-أبريل، 1974، ص 286.
- 6- الصنهاجي أبو عبد الله محمد، أخبار مملوك بني عميد وسيرته، تحقيق جلول أحمد بدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 42.
- 7- رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 203.
- 8- محمد تحريشي، أسس المكون الثقافي للحماديين، مجلة الفضاء المغاربي، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها بالمغرب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان، العدد 2، أبريل 2004، ص 266.
- 9- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، (دت)، ص 777.
- 10- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، دار الشروق، 1980، ص 73.
- 11- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأبصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 23.
- 12- رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 270.
- 13- قدور أحمد، المدن الموحدية وعلاقتها بالإقليم (دراسة اجتماعية اقتصادية) دكتوراه في التاريخ (مقونة) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988، ج 2، ص 437.
- 14- ينظر: Golvin (L) le maghrib central à l'époque des Zirides Adrien Maisonneuve, paris, 1962, p153.
- 15- رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 163.
- 16- المرجع نفسه، ص 156.
- 17- المرجع نفسه، ص 273-274.
- 18- المرجع نفسه، ص 274.